الضريبة الأدبيـــة

على الادباء النابهين

الأســـتاذ محمد صادق رستم

كان المذهب الخيالي « رومانتيك » في إبان ازدهاره بفرنسا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر حين وضع ألفريد دوفيني الكاتب الشاعر مسرحية سماها « شاترتون » ، وإنما عنى بهذا الاسم فتى إنجليزياً شاعراً مطبوعاً كان يسكن في غرفة منعزلة عالية بدار تاجر مالي ، ويقضي يومه ومعظم ليله في استنزال وحي الشعر السامي ، رجاء أن يعرضه للنشر فينال الربحين الأدبي والمادي . فحدث أن طال عليه دلال ذلك الوحي وتجنت عليه القريحة ، ومر شهر في إثر الشهر وفي عنقه أجرة الغرفة التي يسكنها ، فأوعز التاجر المالي الذي لا يفهم غير لغة النقود والأرقام إلى زوجته أن تنذر الفتى بزيل الدار بوجوب الدفع العاجل وإلا فالقاضاة والطرد . . . وكان فتانا الشاعر البائس قد ألف الاقتناص بطفلي السيدة ربة الدار ، وكثيراً ما كان يلاطفهما ويرسم لهما الصور المضحكة المسلية ، فأشعرت السيدة العطف على هذا الفتى الأليف ، وداخلتها الشفقة عليه فسوفت في إبلاغه إنذار زوجها ، وجاءت تدبر له مخرجاً ، وتجد له ما يسدد به ما عليه ، لذلك الذي لا يعرف عذراً ولا يصبر على حق ، ولكن الجدود العواثر رمت بالفتى في طريق هذا الجبار على باب الدار ، فاستطال لسان الذهب على الديباجة الرقيقة من الأدب ، فكبر الأمر على فتانا « شاترتون » ، فلم يجد مخلصاً إلا في الانتحار بالأفيون ، ولعله « قبر في صدره القصيدة الخالدة »

* * *

تلك خلاصة وجيزة للمسرحية ، والذي يعنينا منها أن « دوفيني » المؤلف قدم لها يوم طبعها بمقدمة بارعة فرق فيها بين الأديب والكاتب الكبير والشاعر . فذكر أن الأولين كثيراً ما يشقان طريقهما إلى الشهرة فيكفل لهما العمل رغد العيش وميسرة الحال ، وقال المؤلف إن مثل هذين الرجلين يستطيعان أن يفهما الجمهور ويفهمهما الجمهور فيسهل عليهما انتزاع الرزق من يد القراء في أي وقت شاءا ، أو شاء لهما جرى القلم ، أما الشاعر فشيء آخر . . .

ومضى دوفيني يصف الشاعر بأنه مخلوق خاص لا يكاد يحسن شيئاً من وسائل طلب العيش في غير دائرة الشعر ويزيد في طينه بلة أنه غريب في وسط الجماهير ندر من يفهمه ، وأندر من ذلك من يعرف له قدره . ثم إنه يضن بوقته إلا على التماس الوحي الشعري . ويضاف إلى ما تقدم طبعه ومزاجه ، ولعله كوّن كالساعة التي صنعت لتدور على غرار خاص . فمثل هذا المندليب الذي لم يخلق إلا ليتغنى ، ولا يحسن إلا أن يتغنى ، ألا ينبغي أن تسنده يد في زحام هذه الحياة التي ينحى الناس فيها بعضهم بعضاً عن سبل العيش والكسب بالمناكب . « لعل في صدر ذلك المستضعف القصيدة الخالدة » فكيف نصرفه عن مناجاة وحيه إلى الدأب المستمر وراء اللقمة ، وفيم نحفل بالمندليب فنقتنيه ونتخير له القفص المزدان ، ونتقدم إليه بالحب الخاص ، ونقيه عاديات الجوارح ، ونشفق عليه حتى من عوارض الطبيعة ، وشاعرنا الإنسان العبقري في زوايا الإهمال ومطارح الإغفال ! . . .

* * *

هذا ما كان يقوله دوفيني في عهد ازدهار دولة الأدب الخيالي ، وهو عهد لم يطل ؛ فقد ألح عليه أمثال فلوبير بالمذهب الحقيقي (ريالزم) وزولا بالمذهب الطبيعي (ناتورالیزم) فتوارى ؛ بل لقد أفرد زولا لأمثال تواليف دوفيني كتاباً في النقد اسمه المذهب الطبيعي في المسرح (لوناتورالیزم أو تیاتر) تناول فيه في جملة ما تناول ، رواية شاترتون ومقدمتها بالذات وأبى على دوفيني وصفه للشاعر واستنكره وسخر منه . وجلي أن الناقد إميل زولا لم ينظر إلى الموضوع إلا بمنظاره الخاص ، ولم يقسه إلا بمقياسه الذهبي فلندع له رأيه المحترم

ولقد عرفنا نحن فى بعض شعرائنا المطبوعين أن كثيراً منهم، وخصوصاً بعد عهد جوائز الأمراء والكبراء، بله الخلفاء، كان يعمل بيديه ليرتزق مثل الجزّار وخابز الأرز والرفاء والسراج والوراق ونحوهم، ولكننا نذكر مع ذلك العهد الذى كان يُعال، ولو شقت اللفظة، فيه الشاعر العبقرى، أو بعبارة أخرى يُكفى شيئا من الكد وراء الرزق ليتوفر على التفكير والاستيحاء، فكان للأخطل مثلا مروانه، وللمتنبى سيف دولته، وللبحترى متوكله؛ كما كان لشوقى توفيقه ثم عباسه، ولحافظ الأستاذ الإمام. فقال فى رثائه:

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

وكانت فى فرنسا على الأخص للمملقين من الشعراء حاميات أو راعيات يفتحن لهم (صالوناتهن)، وإلى جنب ذلك بعض الجمعيات التى تسدى العون الأدبى، وتجيز ماديا أحيانا فيجد الشاعر وخصوصاً الناشىء الذى لم يستجل بعد وجه الشهرة متكأ وظهراً ومؤازراً، أما المنكوب بالطبع الشعرى اليوم، وبخاصة عندنا فأمره بيد البؤس إذا هو لم يعمل ليعيش قبل كل شىء، فهل لهذه الحال الشائنة فى عصر النهضة الحديثة القائمة من دواء؟

لعل الذين يُسألون هذا السؤال هم أدباؤنا وشعراؤنا النابهون الذين عبدت سبلهم ودنت قطوفهم واستقر ذكرهم، من أمثال الأساتذة: طه حسين، وزكى مبارك، والعقاد، والحكيم، والمازنى، وعلى محمود طه، وأضرابهم.

ثم لعل فى حظ كل منهم من الاشتهار ما يجيز فرض ضريبة ولو أدبية عليه تقتضيه التفكير فى حماية قرنائه فى الفن إن لم نقل إن الوقت ملائم لتأسيس «جماعة أدب» يعتز بها الشاعر والأديب الخامل.

ولعلنا بعد ذلك نسمع رأياً أو مقترحا فى هذا الموضوع من ذوى الشأن. وأكبر اليقين أن صفحات «الرسالة» ترحب بهذا وتفسح له خير صدر

محمد صادق عنبر

الملفات بمتن كريمات

القصة الأولى عن هذه الحرب التى يرن رنين الصدق فى كل سطر منها. قصة تملك زمام النفس منذ الصفحة الأولى، تصف جماعة من القلاع الطائرة ورجالها، فى قتال اجتمعت فيه ضدهم جميع عوامل القتال.

اقرأ قصة البطولة والبسالة والاقدام فى الجو، قصة رجال يموتون شجعانا، وقصة القلاع، ملكات الجو، بمتن كريمات، ٣٦ صفحة يلخص فيه كتاب عظيم للكاتب وليم ل. هوايت، مع اثنتين وعشرين مقالة أخرى تمتعك وتفيدك وتلذك، فى:

المختار

ديسمبر ١٩٤٣